



تجليات الاستعارة التّصوريّة في المرأة الجزائرية الثّوريّة جميلة
بوحيرد أنموذجا (مقاربة عرفانيّة لنماذج شعريّة مختارة)

**The Manifestations of Imaginative Metaphor
of the Revolutionary Algerian Woman
Case Study of Djamila Bouhired
(A cognitive Approach to Selected Models)**

أسماء حمايدية

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

جامعة 8 ماي 1945 قلمة (الجزائر)، hamaidia.asma@univ-guelma.dz

ملخص:

تأتي هذه الورقة البحثية لبيان كيفية اشتغال الاستعارة التّصورية في بعض المختارات الشعريّة العربيّة الحديثة والمعاصرة التي أشادت بالدّور البطولي والمنجز التاريخي لجميلة بوحيرد، انطلاقا من رصد آلياتها في العمل من منظور عرفاني قائم على قاعدتي: الإسقاط التّبئري بين مجالين أحدهما مصدر والآخر هدف، والمزج بين فضاءين دخلين لإنتاج فضاء خيالي يكون سببا إلى فهم الحقائق.

كلمات مفتاحية: الشعر، الثورة، المرأة، الاستعارة، العرفانية، التّبئير، الإسقاط، المزج.

Summary:

This research paper aims to explain how the imaginative metaphor works in some modern and contemporary Arabic selected poems that praise the brave role and historical achievement of Djamila BOUHIREN through the observation of its mechanisms in action from an ontological view based on two principles: the extrapolative projection between two fields, a source and a goal, and then blending of two internal spaces to produce an imaginary space that serves as a means to understand truths.

Keywords: Poetry ; Revolution; Woman; Metaphor;cognitive ; Foresight ; projection ; blend

1. مقدمة :

يحسُن المدخل إلى هذا الموضوع من مقولة: «الشَّعر رؤيا بفعل والثَّورة فعل برؤيا» الدَّالة على التَّواشج الأزلِّي بين الشَّعر والثَّورة، إذ لطالما كان الأدب أبرز وسائلها المشروعة، حتَّى إنه «أحيانا لا يستطيع شعب من الشَّعوب أن يبكي بصورة علنيَّة فتأتي قصيدة شعر لتتولَّى البكاء عنه»¹. وليس من المغالاة أنَّ النَّص يزداد ارتقاءً في مدارج الإبداعية حين يتعلَّق الاسم بامرأة، أوتيت من عزم الرِّجال ما قدَّر لها، فجادت وأجادت حتَّى باتت رمزا عالميا تتغنى به كلُّ المقاومات الإنسانيَّة، وفي جميلة بوحيرد كفاية الإشهاد. لقد فجَّرت قريحة شعراء كثر ففتنَّوا في التَّعبير عمَّا كابدته من أجل تحرير وطنها، وكانت الاستعارات أبرز المسالك التَّصويرية، لأنَّها بالمفهوم العرفاني آليَّة في التَّفكير قبل أن تتكفَّل اللغة ببيانها. وعلى هذا الأساس تنطلق هذه الورقة البحثية من إشكالية كبرى مفادها: كيف تسهم الاستعارة التَّصويرية في تقريب النَّص الشَّعري من المتلقي؟ ونروم منه بيان أثرها في تعيين المقاصد انطلاقا من طرائق اعتمادها على المزج بين فضاءين أو الإسقاط الانتقائي بين مجالين، باعتماد المقاربة العرفانية التي تتعامل مع الاستعارة بوصفها نسقا ضمن بنياتنا التَّصويرية، ذلك أنَّ كيميَّة تفكيرنا وتعاملنا وسلوكاتنا مشدودة إليها بإحكام.

2. في اللسانيات العرفانية:

كان منتصف الخمسينيات من القرن الماضي المنطلق الفعليّ لنشأة العلوم العرفانية، بعد أن تقاسمت موضوع الذَّهن مجالات بحثية مختلفة اكتسبت مع مددها العلميّ مظهرا رسميا منذ تأسيس جمعية العلوم العرفانية مشفوعة بمجلة وأقسام جامعية خاصة، ذلك أنَّ «الفلاسفة والمناطق والألسنيين وعلماء النَّفس وأطباء الأعصاب والباحثين في السَّلك الحيواني وعلماء الفيزياء والمعلوماتيين، استفادوا من المزايا العلمية والتقنيَّة وطوَّروا عددا من الأبحاث التي تمكَّن من الفهم المتنامي للأداء الذَّهني للعاقل، وكشفوا بعض مفاتيح علاقته بالعالم»² فاستوت العرفانية «مصطلحا يضم بين دفتيه جملة من المعارف والفنون التي تتفق في تناولها بالشَّرح والوصف كلِّ ما يتعلَّق بالقدرات الذَّهنية وعمليات الذَّكاء وخصوصا منه الذَّكاء البشري، على الرِّغم من أنَّ منطلق هذه العلوم كان بمقايضة بين آلات الذكاء الاصطناعي من حواسيب وأدمغة إلكترونية والدِّماغ البشري، وهي مقايضة أفضت إلى وضع مقارنة لكيميَّة معالجة الذَّهن البشري للمعلومات، وكان للبحوث السيبارنتية دور في تطوير هذه العلوم»³

ولما كان الجهاز اللغوي أحد الوجوه الوصافة للذكاء البشري وُجد من أقسام العلوم العرفانية ما يُعرف بـ : (اللسانيات العرفانية)، القائمة على اعتبارين يتجاوزان الاتجاه التوليدي هما: اعتبار الدلالة أساساً في دراسة الظاهرة اللغوية، و«اعتبار النحو مجموعة من العمليات الذهنية التصويرية المعالجة للمعلومات»⁴ محدثة بذلك نقلة نوعية في مستوى البحث اللساني، حيث بات يُنظر إلى الظاهرة اللغوية نظرة جديدة مبنية على كيفية اشتغال التصورات والمفاهيم، بحيث تمثل الدلالة العرفانية فيها ناتج تفاعل بين العلاقات القائمة بين التجربة والعرفان واللغة.

لقد أدى تركيز اللسانيين العرفانيين على الدلالة إلى تغيير النظرة إلى النحو، إذ لم يعد مسؤولاً عن صياغة التراكيب الصحيحة، وإنما أصبحوا يهتمون به باعتباره نظاماً يسمح بتشكيل أبنية اصطلاحية تسمح بتصنيف المعاني وإدراجها ضمن مقولات، وبهذا يصبح النحو عرفانياً «عبارة عن تحليل للعلاقات القائمة بين مجموعة الأصوات المتعاقبة والدلالات المسندة إليها»⁵ ومن المبادئ التي أقرها العرفانيون للدلالة أيضاً اعتبارهم المعنى والتصور يوظفان بالمفهوم نفسه، أي «المعنى لا يعدو أن يكون إلّا تصوّراً معيناً، ومعنى عبارة ما إنّما هو ذلك البناء أو التشكيل الخاص الذي تفرضه العبارة على مشهد تصوّري، وبذلك يتمثل التحليل الدلالي لعبارة ما في إبراز الطريقة الخاصة التي وقع اعتمادها في تلك العبارة لتشكيل المشهد وبنائه بطريقة مخصوصة»⁶ ويفاد من هذا أنّ التنظيم الدلالي يفسّر التركيب النحوي للعبارة وليس العكس، وبالتالي «كلّصيغة أو بناء مهما كان المستوى الذي يوجد فيه إنّما تبرّره وتفرضه اعتبارات دلالية، مع العلم أنّ الاعتبارات التداولية بالنسبة لهم ليست إلّا جزء من الاعتبارات الدلالية»⁷.

ويبرز في الطرح اللساني العرفاني مبحثان أساسان هما: النحو العرفاني والاستعارة التصويرية أو المفهومية، أمّا الأول فقدّمه رونالد لانفاكير (Ronald Langacker) بوصفه نظرية دلالية شاملة تعيد الاعتبار لكلّ الأبنية اللغوية، من منطلق أنّ «اللغة أبنية متكاملة لا تدرس إلّا وفق معايير ثابتة من المعالجة باعتبارها أبنية مركّبة في الآن ذاته، وكلّ بنية منها تتمثل في نسق بنية أخرى، ولا يمكن الفصل بين هذه الأبنية، ولا يمكن إهمال مكوّن من المكونات اللغوية، وليس هناك اعتبار رئيسي لمكوّن على المكونات الأخرى»⁸ وأمّا الاستعارة العرفانية فقد خرقت التصور الانزياحي المتقادم وباتت عملية ذهنية وآلية طبيعية في اللغة،

وهي هنا المدار الذي نبحت في تمظهراته الشعريّة الواصفة لبطولات المرأة الجزائريّة الثوريّة، على غرار جميلة بوحيرد.
3. في الاستعارة التّصوريّة:

أمكن للّسانيين العرفانيين نقل الاستعارة من مجرد زخرف قوليّ معلوم بلاغيّاً إلى معاملتها كبنية ذهنيّة؛ أي إنّها «ما قبل العرفانيين ظاهرة لغويّة وهي عند العرفانيين ظاهرة تصوّريّة وما اللّغة إلّا أحد وجوه تجلّيها»⁹. ويعود الفضل في ذلك إلى جهود كلّ من جورج لاکوف (George Lakoff) ومارك جونسون (Mark Johnson) في مؤلّفهما المشترك "الاستعارات التي نحيا بها". الذي أثبتنا فيه أنّ «النّسق التّصوريّ العادي الذي يسيّر تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعاريّة بالأساس»¹⁰. بمعنى أنّنا نحيا بها عن وعي أو دونه، وهي حاضرة في مختلف تجاربنا وتصرفاتنا من غير تصنّع؛ كونها بنية تصوّريّة طبيعيّة ضمن نسقنا الفكريّ. ولا يعني هذا أبداً تجرّدها من العرف الإنسانيّ، بل يؤكّد العرفانيّون على خضوعها المطلق للتّواضع الاجتماعيّ الذي يُفقد أهلها الشّعور بطبيعتها الاستعاريّة، مع واجب الاحتفاظ بطابعها الاستثنائيّ الموكول إلى أصحاب الفنّ، وقد يُكتب لهذه الأنماط غير التّواضعيّة الانتشار فتصبح من مألوف الكلام.

ويعود الاعتراف بطابعها الاصطلاحيّ إلى معارضة العرفانيين النظرية الكلاسيكيّة المنشغلة بحرفيّة المعاني وفصل الدّهن عن الجسد، فبناء التّصوّرات عندهم يتحقّق عن طريق التفاعل بينهما؛ أي «لا وجود للمعنى أو للخيال أو لأشدّ مفاهيمنا تجريداً خارج الجسد أو خارج إدراكنا المتجسّد للواقع»¹¹ وعلى هذا الأساس تستوي الاستعارة التّصوريّة بوصفها عمليّة ذهنيّة قائمة على الرّبط الآليّ بين الموجودات والتّجارب لتشكل شبكة دلاليّة متكاملة على مستوى البنية التّصوريّة، التي تتجهّز فيها كلّ المعارف بما في ذلك اللغويّة منها. وتجدر الإشارة ههنا إلى أنّ العرفانيين يميّزون بين الاستعارات العرفانيّة والاستعارات اللغويّة، فالأولى بنية ذهنيّة تتمظهر عن طريق الثانية؛ أي إنّ المتاح من الاستعارات في سلوكياتنا العادية والإبداعيّة ما هو إلّا تجلّيات للاستعارات الكامنة في العرفان، وهذا المفهوم يطابق تماماً العلاقة بين اللّغة والكلام لسانيّاً، فاللّغة بالغة التّجريد، والكلام هو الإنجاز الفعليّ لها، وبالقّياس تكون «الاستعارات التّصوريّة طريقة في التّفكير والتّعبير الاستعاريّة طريقة في الكلام»¹².

4. آليات اشتغال الاستعارة التصويرية:

يمكن الحديث في إطار التّصوّر العرفاني عن نظريتين أساسيتين لاشتغال الاستعارة
التصويرية هما¹³: نظرية الإسقاط أو النظرية التصويرية للاستعارة ونظرية المزج المفهومي/
التصوري.

1.4 نظرية الإسقاط (النظرية التصويرية للاستعارة): تغيّرت أنظار اللّغويين إلى الاستعارة
منذ صدور كتاب (الاستعارات التي نحيا بها)، حيث يعتبرها صاحباها آليّة عرفانية، والمفاد
من هذا أنّ «موقعها ليس في اللغة على الإطلاق وإنّما في الكيفيّة التي تمفهم بها مجالا ذهنيا
ما لمجال آخر»¹⁴ بمعنى أنّها تقوم على فهم ميدان تصوّري ما وليكن الميدان (أ) عن طريق
ميدان تصوّري آخر وليكن الميدان (ب)، يسمّى أولهما الميدان الهدف وثانيهما الميدان
المصدر، ويتحقّق الفهم من خلال شبكة من العلاقات تسمّى إسقاطات. فعندما نقول مثلا:
«الحياة رحلة، تقوم هذه الاستعارة على فهم ميدان الحياة عن طريق ميدان الرّحلة من
خلال إسقاط خاصيّاتها عليها، فالحياة كالرحلة لها بداية هي ساعة الميلاد، ولها نهاية هي
ساعة الموت، وهناك مسار يسلكه المرتحل، وفي هذا المسار عوائق ومطبات ومنعرجات
واستراحات وغيرها»¹⁵. ولكن هذا لا يعني إسقاط جميع خاصيّات الميدان المصدر على
الميدان الهدف، بل هو إسقاط تبئري تتحكّم فيه السيرورة الثقافية؛ لأنّ «الاستعارة هي
نتاج التجربة الإنسانية... لذلك فمراعاة الأعراف والتقاليد اللغوية الجارية أمر لا مفرّ منه
في عمليّة إنتاج الاستعارة حتى تتحقّق عملية الفهم والإفهام، لأنّ جهل السامع بالمقصود من
المستعار منه وقد غاب المستعار له، يجعل من فكّ الاستعارة ضربا من التعمية والإلغاز،
ويجعل السامع بزاده المعرفي وموروثه الاستعاري عاجزا على فهم هذه الاستعارة»¹⁶.

2.4 نظرية المزج المفهومي/التصوري: تُناط مُخرجاتها بمنوال الباحثين فوكوني
(Fauconnier) وتورنر (Turner) في تسعينيات القرن الماضي المسّى (شبكات المزج
التصوري)، هذا المزج أو الدمج التصوري «يقوم أساسا على مفهوم الفضاء الذهني، فهو
بنية تمثيلية تنظيمية ينجزها المتكلّم لحظة تكلمه أو كتابته أو تفكيره أو تخيّل»¹⁷. وتفسّر
هذه النظرية آليات اشتغال الفكر البشري الذي يستمدّ تشكّله من خلال معالجة المجالات
التي تبينها التجربة، ولأجل وصف هذه المعالجة استعان فوكوني وتورنر بفكرة الفضاءات
الذهنية باعتبارها تجمّعات تصوّرية صغيرة تبني عندما نفكّر ونتكلّم، بغرض الفهم

والإدراك. (الفضاء المزيج).¹⁸ و«تفترض نظرية المزج أن المعاني تولّد بفضل عمليات دمج معقّدة يكون الانطلاق فيها من فضاءين ذهنيين دخلين يحدث بين عناصرهما إسقاط يخوّل توحدتهما في فضاء جامع هو إطار خطاطي يجمع بين ما اشترك من الدخلين، ثمّ يحدث إسقاط انتقائيّ من الدخلين في الفضاء الرابع، وهو الفضاء المزيج، الذي تتألف فيه بعض مكّونات الدّخلين، ويتولّد بالمزج بينها معنى جديد لا أثر له في الأفضية الأولى بفضل عمليات التركيب والإكمال والبلورة»¹⁹ فعندما نقول: الجراح الجزار، يتولّد لزما معنى الجراح الفاشل، بفضل الجمع بين فضاءين متباعدين هما فضاء الجراحة وفضاء الجزارة جمعا جزئيّا يخوّل تولّد معنى الفشل في الفضاء المزيج استنادا إلى عملية استدلالية تظهرها آليات التحليل المزجي قوامها التوليف الحاصل بين دوري الجراح والجزار وعدم التناسب بين غايات الدّورين.²⁰

مما يستدعي الإشارة أنّ اختلاف هاتين التّظريتين في جهازهما المفاهيمي لم يمنع تكاملهما في منظور بعض الباحثين، باعتبار أنّ "نظرية الاستعارة التّصورية تقوم على فهم المعنى الاستعاري من خلال فهم (أ) عن طريق (ب)، فالميدان الهدف والميدان المصدر مختلفان، بينما في نظرية الدمج المفهومي هناك تمشّ داخليّ في شبكة من الفضاءات الدّهنية تنتج دمجا أو انصهارا بين العناصر المكوّنة للفضاءات الدّخل²¹. ومع ذلك، يعتبر آخرون نظرية المزج تسدّ قصور النظرية التّصورية القائمة على ازدواجية مجالية في التّوليد الاستعاري، وتكمن إضافتها الحقيقيّة في اعتبارها الدّمج «ملكة عرفانية مرنة وجزءا من العرفنة الباطنية، بحيث "يستند التشكيل النهائي للبنيات الاستعارية إلى انصهار الفضاءين الدخلين، ويؤدي تعالقهما التفاعلي إلى إفراز بنية منبثقة موحدة جديدة».²²

5. عرفانية الاستعارات التّصورية في جميلة بوحيرد من خلال نماذج شعريّة مختارة:

جميلة بوحيرد، الاسم الذي بلغت شهرته العالم أجمع، اسم يختزل قصّة مليون اسم واسم من الجزائر، ويعادل كلّ روايات النّضال العسير والصّبر المرير، تلك الشّابة الطّفلة، والطّفلة المسنّة، والمرأة الرّمز، في سيرتها عبق التّاريخ العظيم، ونشوة الانتصار الحقيقي. عشرينيّة قادها القدر إلى جبهة التّحرير الوطني، وشجاعة اقتحمت عالم الفداء فكانت أوّل المتطوّعات فيه. أُشيعت ميولاتها التّضالّية بعد أن عاقبها ناظر المدرسة الفرنسيّ عقابا شديدا لقولها: الجزائر أمّنا. أوكلت إليها مهمّة الوصل بين قائد الجبهة في الجبل ومندوب القيادة في المدينة. ونظير بطولاتها المجيدة باتت المطلوبة الأولى للجيش الفرنسي، تمّ القبض

تجليات الاستعارة التصويرية في المواءمة الجزائرية الثورية جميلة بوحيرد أنموذجاً (مقاربة عرفانية
لبنماذج شعرية مختارة) _____ (العدد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025)

عليها بعد إصابتها (1957)، لتبدأ رحلة عذاب وتنكيل مستنكر، وتدّد العالم بإعدامها،
فعدّل عنه إلى السجن المؤبد فنالت حريتها مع تحرير الجزائر.

لقد ألهمت سيرتها الأدباء وجاد الشعُر بسبعين قصيدة عربية، تعاملت معها على أنّها
رمز للكفاح والتضحية. ففي العراق اعتُبرت ثورة الجزائر ثورة كلّ العرب، وبطولاتها صوراً
لبطولات الأوائل، فأشاد شعراؤه بإنجاز المجاهدين ورثوا الشهداء وأعابوا الاستعمار،
وجعلوا منها مثلاً يحتذى به، وما أكثر مخاطبتهم للثورة عبر جميلة، لقد قالوا فيها²³:

الله لَوْلَاكَ يَا فَادِيَةَ
مَا أَثْمَرْتُ أَغْصَانُنَا الْعَارِيَةَ
أَوْ زَنْبَقْتُ أَشْعَارُنَا الْقَافِيَةَ
إِنَّا هُنَا فِي هُوَّةٍ دَاجِيَةِ
مَا طَافَ لَوْلَا مُقْلَتَاكَ الشُّعَاعَ.

تنحدر من هذا النظم البليغ استعارات تصوّرية يمكن الإمساك بها عبر تلك العتبات
التقريرية التي تمرّر الدلالات المطلوبة من باب التشبيه، ومسايرها الرئيسة تلك الألفاظ
والتراكيب التي تخلق المجال المصدر بالمفهوم العرفاني، ويمكن تحديده بالتساؤل عن
الخيطة الناظم بين : أثمرت أغصاننا، وزنبقت أشعارنا، هوة داجية، الشعاع، لا امتراء أنّ
كلّاً من الإثمار والزنبق وتبدّد الدجى والشعاع منوط بالشّمس دون سواها، وإنّما لفادية!
أليست من تتوهّج لتنير الأرض وتنشر الحرارة وتبعث الطّاقة بتسخير ربّاني! ثمّ إنّها فادية لأنّ
عطاءها مدد ولا ترجو مقابلاً، وإنّ القسم القرآني دليل على أنّها أعظم آيات الله، وأنّها أبرز
الأسباب في الإنعام، بدليل تقدّمها على سائر الكواكب في الذكر الحكيم، «واعلم أنّه تعالى
إنّما أقسم بالشّمس وضحاها لكثرة ما تعلّق بها من المصالح، فإنّ أهل العالم كانوا كالأموات
في الليل، فلمّا ظهر الصّبح في المشرق صار ذلك كالصّور الذي ينفخ قوة الحياة، فصار
الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل»²⁴.

ولنا أن نتخيّل المجال الهدف بالاعتبار العرفاني (جميلة) بعد الإسقاط، وهو كما
أسلفنا إسقاط تبئيريّ، فلا يمكن أن تكون جميلة معادلة للشّمس حقيقةً، ولكنّها تأخذ منها
بحظّ وافر! فهي شريكها في الفداء لأنّه استغناء عن الذات وإيثار للآخر، فجميلة هلك
شبابها خلاف أترابها في التعذيب المادّي والنّفسي وما زادها إلّا ثباتاً! ولم ترج من قادتها أو

شعبها شيئا يُذكر! لقد تفانت في التّضحية عن قناعة تامّة بالواجب الوطني، وإنّ إصرارها على الصّمود واللاعتراف كان أحد الدّواعي المغذّية لاستمرار العمليّات القياديّة وإتيان غاياتها، وقد صارت رمزاً ثوريّاً تزنبقت قافية الشّعْر به، وكأنّ لمحياء بعد توظيفها نُكهة مغايرة، ولا يمكن لمثل هذا المُنجَز إلّا أن يكون نوراً يهدم ظلام المستعمر وظلمه، ويستحيل أثراً يقتفى ونموذجاً يحتذى. إذا لقد قامت هذه المقطوعة الشّعريّة على الاستعارة المفهوميّة (جميلة/ الشّمس) حيث أسقط الميدان المصدر (الشمس) على الميدان الهدف (جميلة) وكأنّ من لا يعرف جميلة يكفيه استحضر الشّمس ليدرك لوازم الالتقاء والتقاطع، لأنّ «الإسقاط العرفاني ليس إسقاطاً آلياً نسقط فيه جميع خاصيّات الميدان الأول على الثاني، ولكنه انتقائيّ، فيه يقع التّبئير على خاصيّات دون أخرى. وهو بذلك إسقاط تتحكّم فيه الثقافة التي تحدّد فهمنا للاستعارة وفهمنا للعالم»²⁵.

ومن بديع النّظم فيها أيضاً قول نازك الملائكة في قصيدتها (نحن وجميلة):²⁶

جميلة! تَبْكِينَ خَلْفَ الْمَسَافَاتِ خَلْفَ الْبِلَادِ
وَتُرْجِينَ شَعْرَكَ كَقَلْبٍ دَمَعَكَ فَوْقَ الْوَسَادِ
أَتَبْكِينَ أَنْتِ؟! أَتَبْكِي جَمِيلَةً؟
أَمَّا مَنَحُوكِ اللَّحُونَ السَّخِيَّاتِ وَالْأَغْنِيَّاتِ؟
أَمَّا أَطْعَمُوكِ حُرُوفًا؟ أَمَّا بَدَلُوا الْكَلِمَاتِ؟
فَفَيْمَ الدُّمُوعِ إِذَنْ يَا جَمِيلَةً؟

قد يكون من باب المغالاة نفْيُ بكاء جميلة وهي تحت العذاب الأليم، ففي سجايانا الألمُ يستحضر الدّمع طوعاً، وتنسكب العبرات تترى صاغرةً، ومع ذلك تكابد جميلة في أنفة! تبكي ولا تستسلم، تبكي ولا تعترف، ويبيت لزماً لهذا المشهد التّصويريّ لامرأة حديديّة أن يستنزف الجبر والحرف والشّعْر واللّحن! ومعلومٌ أنّ الفنّ إن استحقّق اسمه خالد لا محالة، وبخلوده خلود جميلة! وكأنّ نازك هنا تستحضر استعارة تصويريّة تجعل فيها التّاريخ بما مَقُولُنَا عنه في بنياتنا التّصويريّة مجالاً مصدراً يسقطُ على المجال الهدف (جميلة)، والإسقاطُ ذو طبيعة عينيّة بالضرورة، فالتّاريخ المقصود هنا ذاك الذي يحمل طابعا ماجدا لا تكدره وقائع سالبّة، ولا ينتقص من قدره اختلاف، والشّهادة على حقائقه عامّة، ومن حمل اسم التّاريخ بهذا المعنى كفاه، لأنّه يتجاوز الإسهام في صناعته إلى اختزاله في شخصه،

تجليات الاستعارة التصويرية في المرأة الجزائرية الثورية جميلة بوحيرد أنموذجاً (مقاربة معرفانية
لبنماذج شعرية مختارة) _____ (المجلد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025)

وكان كل تاريخ إنما ينصهر في بوتقة تاريخه، وكفاية الشرف من هذه الاستعارة لا يحتاج إلى توضيح! وأولى بصاحبه ألا يبكي أو يحزن ما حيا تماماً كما أرادت نازك بيانه...

ومن روائع ما نظم في جميلة ما ورد عن الشاعر العراقي شفيق الكمالي²⁷:

هِيَ لَنْ تَمُوتَ
فَخَوْلُهُ لَمَّا تَزَلْ
رُغْمَ الْوُدِيِّ نَجْمَةً
تُلَوِّحُ فِي الْعَتَمَةِ
يَاقُوتَةَ خَضْرَاءُ بَسَامَةٍ
فَجَدَّتِي تَحْكِي لَنَا عَنْهَا
لَكِنَّ جَدَّتِي لَا تَسْمَعُ الْأَخْبَارَ
لَمْ تَدْرِ أَنَّ خَوْلَةَ
عَادَتْ إِلَى الْوُجُودِ
لَكِنَّهُمْ يَدْعُونَهَا جَمِيلَةَ

يبدو المجال المصدر واضحاً ممثلاً في خولة بنت الأُزور، أُريد له الإسقاط على المجال الهدف (جميلة بوحيرد)، لاستوائهما في مشتركات كثرى، ومع الاحتفاظ بالخلاف العلمي الوارد في مدى صحّة ما يُروى عن خولة لا نحمل الإسقاط إلّا ما اتّفق على جريانه حتّى بات مسخراً في الأعمال الأدبية ومنها هذا النص. حيث تجمع الوقائع الثقافية أنّ خولة بنت الأُزور الأسدي شخصية عاشت خلال فترة الخلفاء الراشدين، ذكرت في كتاب فتوح الشام المنسوب إلى الواقدي على أنّها أشجع نساء عصرها، أوتيت حظاً عظيماً من البطولة والشجاعة والمناقب الجليلة، عُرفت بالفارس المثلّم الذي قاتل الروم في حزم وعزم. حليفها الانتصار أينما كافحت، مع رجاحة رأي كلّما استُشيرت. ولعلّ هذا السّنن الثقافي الذي يقع به الإسقاط، لتغدو جميلة في منزلة خولة الأسديّة قدراً واقتداراً، وكأنّ الشاعر يقرب أوصاف جميلة الجزائرية إلى قارئه من خلال عتبة ثقافية عربية مشتركة تثير العجب، وما يثير الإعجاب يستثير التعلّق تباعاً، فكثيراً ما تتنزل المرأة المجاهدة منذ القديم في مقام محمود في المتخيّل الثقافي، وعلى قدر المبالغة تتحقّق أسطرته.

وتستوي جميلة بعيون شعريّة أخرى في مقام هؤلاء العظماء الذين بليت أجسادهم وظلّت أفكارهم حيّة تُرزق، فاستعارة (جميلة فكرة) من باب المستنطق في قول الشاعر جواد البدري²⁸:

أَقْتُلُونِي
أَنَا فِكْرَةٌ
فِي الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ
فِي النُّفُوسِ الْخَيْرَةِ
فِي دُمُوعِ الْكَادِحِينَ
فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِينَ
عَبْرَ أَلْفِ السِّنِينَ
مُسْتَقِرَّةٌ

فأتى للفكرة أن تُقتل، وكيف السبيل إلى كفّ انتشارها ومحو آثارها؟ محالّ أن تفتى فكرة جميلة الجميلة! فجماها من جمال منطقها وعقلانيّة مسعاها ووجهها الفراق مستوحى من جنس صاحبها الضّعيف في أصله العظيم في شأنه. ومن يستوي فكرة لا يمكن أن يظلّ مُلكا لنفسه بل هو ملك للجميع، ولعلنا نستشفّ هذا الأثر واقعيّا من استنكار النَّاسِ زواج جميلة بعد الاستقلال من محامها غير المسلم! فقد روت هي نفسها كيف عاتبها الشّعوب الإسلاميّة على هذا الفعل بعد أن أحكموا وصل عجمته بدينه رغم أنّه أسلم، لم!؟ لأنّ جميلة لم تعد تملك نفسها إنّها فكرة غزت العقول وهيجت النفوس الرامية إلى التّحرّز، لقد باتت رمزا إنسانيّا عامّا، يحقّ لكلّ موالٍ التّنديد بما لا يليق به. وكخلود الفكرة المجيدة تخلد النّعمة القادرة على تحريك النّوازع وتوجيه الرّأي وحثّ الهمم، ولعلّ نعمة الأغاني الثوريّة تصف هذه الثّيمة، ولا نوّد نفي هذا الاعتبار عن غيرها طبعاً فالنفوس متغايرة والأذواق تتباين لزاماً، ولكن لا يُنكر وقعها إلّا فاقد للروح الوطنيّة أو منتسب خاوٍ.

ولعلّ في تلك الأحداث الوطنيّة التي تتخذ النّعمة سبيلاً لإحياء الذّكرى فلا تكاد تُستشعر أو تعرف إلّا بها ما يوضّح القصد، فعنفوان النّعمة بجريان كلماتها يستنهض الفخر بأولئك الأبرار، ويستحثّ الاعتراف بصنيعهم، وجميلة وحدها بألف بطل وبطل! فهي نفسها حين أعلنت المحكمة إعدامها وصديقها جميلة بوعزّة أكبرتا إعدامهما وطفقتا تغنيان أنشودة المعدمين شحنا للتعبئة النّفسيّة، تقول: «كنت مقتنعة بأنني سأموت من أجل أروع

تجليات الاستعارة التصويرية في المراثي الجزائرية الثورية جميلة بوحيرد أنموذجاً (مقاربة عرفانية
للمناخ الشعري مختارة) _____ (المجلد الرابع عشر/ العدد الأول/ مارس 2025)

قصة في الدنيا (...) وما زلت أذكر أننا عُدنا من قاعة المحكمة إلى السجن وصرخ الإخوة المساجين يسألوننا عن مضمون الحكم، أجبنا بالنشيد الذي ينشده المحكومون بالإعدام ومطلعه: الله أكبر، تضحيتنا للوطن (...) وكانت لحظة مؤثرة فآلاف وآلاف الأصوات رددت معنا النشيد محاولة تشجيعنا». هكذا صنعت النغمة العزم وعززت الآمال وشحذت الأنفس حتى تأنسنت، فباتت صورها من صورة جميلة بوحيرد وهذا ما نجده مع الاستعارة التصويرية (جميلة نغمة) في قول الشاعر أيوب صبري عباس:

وَأَذْكُرُ جَمِيلَةَ نَغْمَةٍ مِنْهَا الْإِبَادُ تَشْدُو
إِنِّي الْجَمِيلَةُ... وَالرَّبِيعُ أَنَا بِهِ أُجَّ وَوَرْدُ

عرفانياً، يمكن التمييز بين مفهومين متداخلين ومتقاربين هما قوة الاستعارة واستعارة القوة، أما أولهما فتوضّحه جملة الاستعارات الماضية، أما «استعارة القوة فهي استعارة قاعدية معبرة عن القوة، وهي التي يكون ميدانها المصدر أحد مظاهر القوة»²⁹ ويندرج ضمنها بالضرورة من كانت له أسباب القوة أو هو القوة نفسها، وهذا ما نستكنه في قول الشاعر محمد الفيتوري:

إِذَنْ... هَبْنِي قُوَّةَ الْوُجُودِ
قُوَّةَ إِنْسَانِيَّةِ الْبَشَرِ
قُوَّةَ أَلْفِ نَائِرٍ فِي الْقُيُودِ
يُفَجِّرُونَ طَاقَةَ الْقَدَرِ
قُوَّةَ رُوحِكَ الْمُشْعَّةِ كَالنُّجُومِ
فَوْقَ سَمَاءِ الْجَزَائِرِ

تجري هذه العبارات نحو استعارة مفهومية واحدة (جميلة إله)، ولنا أن نتفحص ما هو مُمَقُول في بنياننا التصويرية عن المجال المصدر (الإله) انطلاقاً من خبراتنا في أنفسنا وفيما حولنا وحوالينا للإمساك بما لا يمكن أن يتناهى من علامات القوة الأبدية، قوة يشهد لها الوجود وكلّ موجود، استعار منها الشاعر ما يوافق الإسقاط الثقافي على المجال الهدف (جميلة) لتغدو إلهاً، ولا يحقّ للإله غير الامتثال والامتثال والاعتراف. فجميلة قاومت بقدرة خارقة وكابدت بوكد عجيب لا يستطيعه البشر العادي، إنّ عملها من جنس ما عُرف عن أساطير الآلهة القديمة، تلك التي هي من طبيعة البشر وتمارس فعل الآلهة، غير أنّ

الإسقاط بين المجالين هنا تبئيري حتما، فلا يستحضر من عالم تلك الآلهة إلا تمتعها بصالح الطاقات، إذ تضحّ المراجع الميثولوجية بحكايات صراعا ونكالها ببعضها وموتها وانبعائها. جميلة هنا رمز ميثولوجي، فهي ربّ/ إله وأولى بالربّ بوصفه مانح الحيات دوام التّجديد والتّقديس!

وفي حدود الشّعر تتفوّق جميلة على المسيح بلسان السيّاب قائلا³⁰:

لَمْ يَلَقَ مَا تُلْقِينَ أَنْتِ الْمَسِيحَ
أَنْتِ الَّتِي تُفْدِينَ جُرْحَ الْجَرِيحِ
أَنْتِ الَّتِي تُعْطِينَ لَأَقْبُضَ رِيحَ

وكأنّ استعارة (جميلة مسيح) تنبني على مزج مفهوميّ بين فضاء دخل أوّل (صلب المسيح) وفضاء دخل ثان (تعذيب جميلة) لإنتاج فضاء ثالث، وهو "فضاء خياليّ"، فنحن نفكّر بالخيال، والمزيج لا يمكن إثباته على أنّه الحقيقة، ولكنّه عوضا عن ذلك يقدّم على أنّه سبيل إلى فهم الحقيقة، وكثيرا ما تأتي الحقيقة من الخيال.³¹ ومن هذا الباب التّصوّري عند الشّاعر خفّت كفة المسيح لفقده صورة الشّهيد الرّمز المصلوب فداء للبشر، ورجحت كفة جميلة بفدائها الجرح فكيف النّفس!

وعلى غرار البُطولة يتغنّى الشّعراء بالحمولة الأخلاقيّة ومعالم الكينونة الاجتماعيّة الجزائريّة في شخص جميلة بوحيرد، وتمثّلها الاستعارة التّصوّريّة (جميلة شرف) الملموسة في قول نزار قباني³²:

لَمْ تَعْرِفْ شَفَتَاهَا الزَّيْنَةَ
لَمْ تَدْخُلْ حُجْرَتَهَا الْأَخْلَامَ
لَمْ تَلْعَبْ أَبَدًا كَالْأَطْفَالِ
لَمْ تُغْرَمْ فِي عَقْدٍ أَوْ شَالِ
لَمْ تَعْرِفْ كُنُسَاءَ فِرْنَسَا
أَقْبِيَّةَ اللَّذَّةِ فِي بِيغَالِ

يتخيّر نزار قباني موضوعا حسّاسا في المنظومة الاجتماعيّة، وعليه مدار البنية الأخلاقيّة، إنّه الشّرف، رأس مال العرب والمسلمين، وعتبار اجتماعي لقياس الإنسان عموما والمرأة خصوصا، حيث تحاطّ عربيّا ومحليّا بهالة من الحدود الوهميّة يُمنع على وجه الإطلاق تجاوزها، لدرجة أنّ اسمها في ذاته يتحوّل في وقائعنا الحياتيّة إلى جزء من العرض، فتجد

تجليات الاستعارة التصويرية في المرأة الجزائرية الثورية جميلة بوحيرد أنموذجاً (مقاربة عرفانية
لبنماذج شعرية مختارة) _____ (المجلد الرابع عشر/ العدد الأول/ مارس 2025)

الطفل الصّغير نفسه لا يستسيغ سؤالاً عن اسم أمّه! تماماً كالزّوج الذي يستعيز بألقاب
أخرى مُدارة وتعمية. ولنا أن نتصوّر الباقي إذا علمنا حجم هذا التّحويل في الفعل
الأنثروبوني على بساطته سوسولوجياً.

ويزداد الشّرف هنا وضوحاً من خلال تلك السلوكات الطّبيعية المنّمة عن تنشئة
اجتماعية مُشبعة بالقيم الدّينية، والعاكسة لانتماء هويّاتيّ قويم، أنّي تختفي رغبات
النّفس جبراً وعمداً ولا تجدُ منفذاً إلى الظهور إلّا في حدود ما يسمح به الشّرع ويجوّزه ضمن
أطر اجتماعية مشروعة كالزّواج، خلافاً للآخر الذي ينفّث على الشّهوات فتسابق الدّونية
القيمة فتسبقها ويغالب الانحراف الاعتدال فيغلبه وليس أدلّ عليها من كلمة (أقبية اللذة)
في هذا النصّ؛ للتوكيد على أنّ النّفس الإنسانيّة مجبولة على التّعقّف وتخونها التّنشئة
الاجتماعية! فجميلة العفيفة التي نكّل الاستعمار بجسدها العاري وظلّت على عهد الوفاء
باقية جديرة بأن تكون رمزا خالداً لهويّة متكاملة الأركان، وعبرة للمرأة الإنسان، التي ترتفع
عن أسباب اللذة العابرة لتحفر في ذاكرة التاريخ اسماً من ذهب تماماً كما فعلت جميلة.

وإنّ استعارة جميلة شرف، جميلة عفاف خالص البنية وجه إيديولوجيّ أيضاً،
«فالاستعاري والإيديولوجي متلازمان لأنّنا نفكّر استعارياً ولأنّنا نفكّر من وجهة نظر معيّنة،
وهذا وجه من وجوه قوّة الاستعارة»³³. فجميلة إذن ليست قضية وطن فحسب، إنّما هي
عنوان انتماء وهوية وإيديولوجيا، ولا يخفى كون الأدلجة تستوجب الاتّباع والإشباع
والدّفاع، تلك المرأة الطّفّرة التي يكفّها بياننا قول نزار:

الاسمُ جميلةٌ بُوحيّرِد
تاريخُ تزويهِ بلادي
يَحْفَظُهُ بُعديّ أولادي
تاريخُ امرأةٍ مِنْ وَطَنِي
جَلَدَتْ مِقْصَلَةَ الْجَلَادِ...

6. خاتمة:

عماداً على ما تقدّم وفي ضوء هذه النّماذج الشّعريّة المختارة يتبيّن أنّ الاستعارة
بالمفهوم العرفاني تتجاوز حدّ الزّخرفة القولية لتُصبح جزءاً من فكرنا عاكسة ما تحتفظ به

بنياتنا التّصوّريّة من أشياء عن أنفسنا والعالم من حولنا وعلى أساس منها نعبّر عن كلّ الموجودات، انطلاقاً من عمليّات الإسقاط الانتقائي بين مجالين أو المزج بين فضاءين دخلين، تماماً كما وصفت جميلة بوحيرد من أبواب استعاريّة تصوّريّة تحكم أبسط أنشطتنا الحيّاتيّة، فالمجالات المصدر تنوّعت بين موجودات كونيّة وحقائق مجرّدة ووقائع ثقافيّة، فالشمس والتاريخ والفكرة والإله والمسيح والهوية والنغمة وخولة الأسديّة وجدت صلاحاً في الانسحاب التّصوريّ على جميلة فاحتوتها لاستيفائها الخاصيات المناسبة للسياق الثقافيّ، وهو أمر يتجاوز الخلق المقصود إلى بيان كيف نفهم عن طريق الاستعارة التّصوريّة آليات اشتغال الذهن في تعامله مع الرموز إنتاجاً وتداولاً.

7. مراجع البحث وإجالاته :

- نوال مصطفى، نزار وقصائد ممنوعة، مركز الذاكرة للنشر والإعلام، ص 106.¹
- ²- غي تير غيان وآخرون، قاموس العلوم المعرفية (فرنسي-عربي)، ترجمة: جمال شحيد، مراجعة: مصطفى حجازي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، لبنان، 2013، صفحة الغلاف
- ³- توفيق قريّة، العرفاني في الاصطلاح النحوي العربي، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس، 2007، ص 9.
- ⁴- عبد الجبار بن غريبة، مدخل إلى النحو العرفاني، مسكيلياني للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ط 1، 2010، ص 9
- المرجع نفسه، ص 34.⁵
- المرجع نفسه، ص ن.⁶
- المرجع نفسه، ص 36.⁷
- ⁸- صلاح الدين يحي، نظرية النحو العرفاني مستوى الثالوث من الأبنية ذات التكوّن الجيّد، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مج 4، ع 2، ص 77
- ⁹- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية الاستعاري والثقافي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2015، ص 1
- مارك جونسون وجروج لأكوف، الاستعارات التي نحيا بها، دار توبقال، المغرب، ط 2، ص 8.¹⁰
- ¹¹- محمد الصالح البوعمراني، دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط 1، 2009، ص 8، 9.
- المرجع نفسه، ص 252، 253.¹²
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص 313¹³

- ¹⁴ - عبد العالي العامري، الاستعارة التصويرية وبناء المعنى في ضوء اللسانيات المعرفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2018، ص39.
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص3، 4.¹⁵
- محمد الصالح البوعمراني، دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، ص198.¹⁶
- ¹⁷ - ريم الهمامي، شبكات المزج التصوري وتمثيل المعنى الضمني، مجلة الفكر اللساني، مخبر المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية، كلية الآداب، منوبة، ع2، 2022، ص150، 151.
- المرجع نفسه، ص151.¹⁸
- ¹⁹ - نجلاء شعير، نحو قراءة جديدة للمشارك في ضوء نظرية المزج المفهومي، مجلة أنساق، دار نشر جامعة قطر، مج4، ع1 و2، ص93.
- المرجع نفسه، ص94.²⁰
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص5.²¹
- ²² - أحمد العاقد، المعرفة والتواصل عن آليات النسق الاستعاري، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2006، ص75.
- بدر شاكر السيّاب، أنشودة المطر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ص56.²³
- ²⁴ - محمد عليّ بيومي أحمد، تفسير سورة الشمس، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمهور، مج4، ع7، 2022، ص120.
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص4.²⁵
- نازك الملائكة، شظايا ورماد، دار العودة، بيروت، لبنان، 1997، مج2، ص505.²⁶
- عثمان سعدي، الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، دت، ج2، ص8.²⁷
- المرجع نفسه، ج1، ص34.²⁸
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص189-²⁹.
- بدر شاكر السيّاب، أنشودة المطر، ص54، 55.³⁰
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص6.³¹
- ³² - قصيدة جميلة بوحيرد، ديوان حبيبتي والرسم بالكلمات، ط1، 1961.³²
- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، ص168.

8. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد العاقد، المعرفة والتواصل عن آليات النسق الاستعاري، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2006.

- 2- بدر شاكر السياب، أنشودة المطر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (دت)
- 3- توفيق قريرة، العرفاني في الاصطلاح النحوي العربي، كلية الآداب والفنون، تونس، 2007
- 4- ريم الهمامي، شبكات المزج التصوري وتمثيل المعنى الضمني، مجلة الفكر اللساني، مخبر المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية، كلية الآداب، منوبة، ع2، أفريل، 2022
- 5- صلاح الدين يحيى، نظرية النحو العرفاني مستوى الثالوث من الأبنية ذات التكوّن الجيد، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مج4، ع2
- 6- عبد الجبار بن غريبة، مدخل إلى النحو العرفاني، مسكيلياني للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ط1، 2010.
- 7- عبد العالي العامري، الاستعارة التصويرية وبناء المعنى في ضوء اللسانيات المعرفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2018
- 8- عثمان سعدي، الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، بغداد، 1981.
- 9- غي تير غيان وآخرون، قاموس العلوم المعرفية (فرنسي-عربي)، ترجمة: جمال شحيد، مراجعة مصطفى حجازي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، ، 2013.
- 10- مارك جونسون وجروج لأكوف، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، المغرب، ط2. 2009.
- 11- محمد الصالح البوعمراني، دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2009
- 12- محمد الصالح البوعمراني، السيميائية العرفانية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2015
- 13- نازك الملائكة، شظايا ورماد، دار العودة، بيروت، لبنان، 1997، مج2
- 14- نزار قباني، ديوان حبيبتي والرسم بالكلمات، ط1، 1961.
- 15- نجلاء شعير، نحو قراءة جديدة للمشارك في ضوء نظرية المزج المفهومي، مجلة أنساق، دار جامعة قطر مج4، ع1 و2 .